

نحو دور بريء في استعمال اللغة.. قراءة في المنعطف اللغوي عند يورغن هابرماس وأكسل هونيث
Towards an innocent role in the use of language. . . A reading of the linguistic juncture of Jurgen
Habermas and Axel Honeth.

oualid lahoua

Faculty of Literature and Languages, Department of Arabic
Language and Literature, Mohamed Lamine Debaghine University
- Setif 02 – Algeria

walidbarae@hotmail.com

Name and surname of the second author/ Hachemi Kechiche

College of Arts and Language , Department of Arabic Language and Literature

Abbas Laghrour University, Khenchela, Algeria

Email hachmik259@gmail.com

"حين أقوم برفع ذراعي إلى الأعلى، ماذا يبقى إذا حذفت واقعة حركة ذراعي إلى أعلى " فتجنشتاين .

" الحقائق لا تكوّن لان الحقائق كيانات في العالم ، وإنما ترابطات بين الأقوال على مستوى المحاجة

ملخص :

، لكن ما يكون هي موضوعات التجربة العائدة إلى الفعل " هابرماس المعرفة والمصلحة.

لقد خطا البحث اللغوي

أصل اللغة ومنبتها، بعد أن أدرك أن إشكالية اللغة تتجاوز حدود الأصل، إلى محاولة التأسيس
للمفهمة، وبانتقاله الراديكالي من فلسفة الوعي إلى فلسفة اللغة متجاوزا بذلك الابستيمية من
أنطولوجية هيدغر ومثالية هيجل، ليؤسس بحق بديلا إتيقيا للخطاب بمنعطف لغوي وعقلانية
تواصلية، مؤدّاها الاعتراف بالآخر.

الكلمات المفتاحية: المنعطف اللغوي، الاعتراف، فلسفة اللغة، إتيقيا الخطاب، التواصل.

Abstract:

Linguistic research has made a great leap when it passes old idealistic which was
only concerned in studying the origin of language and its roots. This was achieved
after it realises that studying language exceeds the boundaries of its origin to

establishing an approach of understanding. And radically moving towards a philosophy of language, thus exceeding epistemology such as Hyder's antologism and Hegel's idealism. Therefore, linguistic research has created an alternative to speech with a linguistic view and a communicative rationalism which seeks to recognizing the other.

Keywords: linguistic turn, recognition, language philosophy, discourse ethics, communication.

مدخل :

لطالما ارتبطت اللغة في تداولاتها واستعمالاتها المختلفة بالكلام، والمتقسي للغة في أحوالها في القاموس لا يجد اختلافاً وشيكا بينها وبين هذا المفهوم، فاللغو في معناه الدقيق والضيق هو ذلك الكلام غير المفيد والمفرغ من معناه. بل وأبعد من ذلك فإن تعليقنا عن أن يمارس اللغة في أبسط صورها نقول عنه إنه يتكلم. وإن سلمنا جدلاً بذلك فإن تحقق فعل اللغة متوقف أساساً على فعل الكلام.

لذا كانت التداولية تُعنى باستعمال اللغة وبالمخاطبين وبتداول الكلام بينهم وهذا ما يشير إليه المفكر طه عبد الرحمن، في كتابه تجديد المنهج في تقويم التراث "إذ إن مفهوم النقل ومفهوم الدوران مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة كما هو مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة، فيقال دار عن الألسن بمعنى: جرى عليها..."⁽¹⁾.

ولما كانت التداولية بحق حاضنة للمخرج الألسني ولما يسميه جان جاك لوسركل "المتبقي" * بدراستها لأوجه العلاقة بين المتكلم واللغة، فإنها أدركت أن وظيفة اللغة لا تنحصر بأن تكون واصفةً فحذت بها إلى دائرة الاستعمال (usage)، بدءاً بـ'افتجشتاين' الذي ذهب إلى القول بأن معنى الكلمة يتحدد من خلال استعمالها في لغة²، وهو ما انتصرت إليه التداولية (pragmatique) من خلال اهتمامها بالوظيفة التواصلية والتفاعلية للغة البشرية، ومن خلال دراسة الأبعاد العملية والإنجازية لها والاستعمالية للسان³، وذلك بتجاوز البنية الصوتية والتركييبية من منظور التداولية فالوحدة اللغوية وحدها لا تكفي حتى لا نجعلها مساوية للسانيات البنيوية على حد قول مسعود صحراوي في كتابه التداولية عند علماء العرب القدامى، بل وبنية أفعال الكلام في بعد تواصلية.

كما تختص التداولية بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم ويفسره المستمع، لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة... وهي دراسة المعنى السياقي والمعنى غير المرئي (invisible meaning) ⁽⁴⁾.

كما يعنى المنهج التداولي بدراسة مقاصد المرسل وكيف يستطيع أن يبلغها في مستوى يتجاوز مستوى دلالة المقول الحرفية وذلك بربط إنجازها اللغوي بعناصر السياق الذي حدث فيه. هذا ويجدر بالذكر هنا أن "أوستين" حصر الفعل الكلامي في فعل القول أو الفعل التمريري، والفعل المتضمن في القول، وأخيراً الفعل التأثيري، ويضيف الدكتور مسعود صحراوي فرعاً رابعاً استوحاه من كلام الأصوليين، فيكون الفعل الكلامي الكامل هو التالي: فعل القول والفعل المستدعى بالقول والفعل المتضمن بالقول والفعل الناتج عن القول. إذ يضيف الفعل المستدعى بالقول بناء على سبق الأصوليين في تعريف الأمر والنهي تعريفاً مغايراً لعلماء المعاني، فالأمر هو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه، والنهي هو استدعاء الترك بالقول ممن هو دونه على سبيل الوجوب.

أفعال الكلام، ومسلمات القصدية.

تعد المدرسة الأنجلوسكسونية في فلسفة اللغة أهم حدث في تاريخ المنعطف اللغوي فلسفيا بدء بفتجنشتاين الثاني وبالخصوص في بحثه عن فلسفة للغة تخرج من وصف القضايا إلى بحث انجازات اللغة، أو ما يفعله الإنسان باللغة" وقد ارتبط ظهوره (البحث التحليلي في اللغة) بالفكرة القائلة أن المشكلات الفلسفية نابعة من اللغة ومن الاستعمال السيئ للغة"⁽⁵⁾، هذا الجهد العظيم الذي قدمه فتجنشتاين لم يتوقف عنده فحسب بل استمر إلى أقطاب ورموز في المدرسة الأنجلوسكسونية وعلى رأسهم قطبي نظرية أفعال الكلام "أوستين وسيرل"، هذه النظرية التي أدت إلى جدل فلسفي ولغظ كبير حيث تحوّل الاهتمام من متن اللغة أو النموذج التركيبي أو البنيوي إلى النموذج التداولي الاستعمالي، حيث "ظهر أثر نظرية الاستعمال أو الألعاب (فتجنشتاين الثاني) أول ما ظهر في مدرسة كمبريدج ومدرسة أوكسفورد وخاصة في أعمال الفيلسوف أوستين austine ولا حقا في أعمال الفيلسوف الأمريكي سيرل searle صاحب نظرية أفعال الكلام speech act أو أفعال اللسان "⁽⁶⁾، حيث إن أوستين لم يهتم بغير اللغة لكنه لم يبق كالفلاسفة المنطقيين يبحث في ماهية اللغة، أو في التركيب البنيوي لها. بل سعى أوستين إلى البحث في ما تنجزه اللغة حيث "ينجز المتكلم فعلا أو آخر بتلفظها لجملة ما وأحيانا بعدد من الأفعال... ويمكننا القول بأن نظرية أفعال اللغة تعد دراسة نسقية للعلاقة بين العلامات ومؤوليتها، ويتعلق الأمر بمعرفة ما يقوم به مستعملو التأويل وأي فعل ينجزون باستعمالهم لبعض العلامات"⁽⁷⁾. فأوستين يرى بأننا "نستعمل الكلمات كأدوات وكوسائل لفهم الوضعية التي نكون أو نتواجد فيها... لا تكمن أهمية اللغة في بنيتها التركيبية ولكن في دورها التوسطي كمجال للاتفاق وبالتالي فإن ما يهمنا بداية هو الوصول إلى نوع من الاتفاق حول ما نقول"⁽⁸⁾.

غير أن أهم تمظهر لنظرية أفعال الكلام في تاريخ البحث الفلسفي اللغوي كان على يد الفيلسوف الأمريكي جون سيرل* حيث يحتل هذا الفيلسوف "موقع الصدارة بين أتباع أوستين ومريديه فلقد أعاد تناول نظرية أوستين وطوّرها فيها بعددين من أبعادها الرئيسية هما المقاصد والمواضعات... وهذا المظهر كان حاضرا لدى أوستين لكن سيعرف أوج تطوره لدى سيرل"⁽⁹⁾، حيث لم يهتم سيرل إلا بالأعمال المتضمنة في القول وهي نظرية الأفعال اللغوية بحق، غير أن الإسهام الأكبر له يتمحور حول "تحديده للشروط التي بمقتضاها يكفل عمل متضمن في القول بالنجاح"⁽¹⁰⁾، ويعضد هذا القول ما ذهب إليه بول ريكور في مساهمة سيرل في نظرية أفعال الكلام حيث يقول "حاول سيرل- في أفعال القول بحث في فلسفة اللغة 1969 - أن يذهب أبعد مما ذهب إليه أوستين في نظرية فعل القول وأن يدخل فيها تحليلات فتجنشتاين وغرايس وستروس، فقال إن التكلم بلغة يعني الالتزام بشكل من السلوك المحكوم بقواعد، والتحكم بهذا السلوك يفهمه انعكاسيا المتكلم قبل إنشاء أية معايير من شأنها التثبيت من التميّزات التي تعرضها عناصر اللغة"⁽¹¹⁾، أي أن كل فعل كلامي حسب سيرل هو صناعة لإنجاز" فحينما انفث واحدة من تلك النّفثات السمعية في موقف كلامي اعتيادي فيمكن القول إنني أؤدي فعلا كلاميا... فمثلا من خلال أمرك بأن تفعل شيئا أذفحك إلى أن تقوم به، ومن خلال المجادلة معك قد أتمكن من حذفك وحين اصدر حكما قد أفتحك"⁽¹²⁾، ومن هذا يظهر جليا أن سيرل قد اهتم بالفعل المتضمن في القول أي ماذا يريد المتكلم من اللغة أن تنجزه في الآخر، فالمعنى "هو شكل قصديّة مشتقة والقصديّة الأصيلة والداخلية في فكر المتكلم تتحول إلى كلمات وجمل وعلامات ورموز... إذا ما أحسن النطق بهذه الكلمات والجمل والعلامات والرموز، بحيث تكون ذات معنى فإنها تتطوي على قصديّة مشتقة من أفكار المتكلم فهي لا تتطوي على مجرد معنى لغوي تقليدي فحسب، بل على معنى يقصده المتكلم... فالمتكلم حين يؤدّي فعلا كلاميا إنه يفرض قصديته على هذه العلامات والرموز"⁽¹³⁾، إذ أنّ مقاصد المتكلم تفهم من السياق الذي ورد في كلامه فالمتكلم لا ينطق إلا عن قصد " فالأصل في التّخاطب عند طه عبد الرّحمان هو القصد"، وبذلك تستقيم نظرية الأفعال الكلامية عند سيرل على دراسة المقاصد فكل فعل لغوي يحمل مقصديته بين ثناياه، و"للمقاصد أهمية قصوى في إنجاز

الأفعال عند سيرل⁽¹⁴⁾، "فقواعد المقصد والمواضعة هي التي تحدّد مقاصد المتكلم والكيفية التي ينفذ بها هذه المقاصد بفضل المواضعات اللغوية"⁽¹⁵⁾، غير أن شرط المقصدية عند سيرل قد شابه إشكال واضح — إن لم يكن نقصا — وهو خروج الكلام في مرات كثيرة عن مقاصده كون قصدية المتكلم قد تتعارض في أحيان كثيرة مع قصدية المستمع، وهو ما يخرج أفعال اللغة عن هدفها وهو الأمر الذي انتبه إليه بول غرايس أين "حاول تقديم مفاهيم أكثر اتساعا من مفاهيم أوستين وسيرل حيث اقترح مفاهيم تنظيمية للتواصل منها أنه مؤسس مبدأ التعاون داخل التبادل التعاوني حول مقاصد المشاركين"⁽¹⁶⁾، أين يحدد غرايس شروطا يشترط توفرها حتى يمكننا الكلام عن تعاون حقيقي في إنتاج الكلام بين طرفي الخطاب، هذا ويعرّف أن ريبول وجاك موشلار مبدأ التعاون بالتالي: "لتكن مساهمتك في المحادثة لحظة حصولها وفق ما يقتضيه هدف المحاور اللغوية التي انخرطت فيها أو وجهتها المقبولة"⁽¹⁷⁾، وتتخلص قاعدة التعاون عند غرايس "على وجه التحديد اعتمادا على أربع مقولات عامة تتصل بكمية المعلومات المقدمة (قاعدة الكم) ومدى صدقها (قاعدة الصدق أو النوع) ومناسبتها (قاعدة العلاقة أو المناسبة) والكيفية (قاعدة الكيف) التي صيغت بها وقد أطلق على هذه المقولات اسم حكم المحادثة"⁽¹⁸⁾، وإذا تحققت هذه القواعد الأربع السابقة، يمكننا القول حسب غرايس إننا في محل تواصل مثالي يكون فيه المتكلم عالما بموضوع كلامه صادقا فيه غير خارج عن الموضوع متجنباً للإبهام واللبس مما ينجح فعل التواصل بالنسبة للمتلقي أو السامع.

غير أن ستيفين فينسون يشير إلى أن العملية الاتصالية اللغوية لا تخلو من مشاكل كثيرة خصوصا عندما يختلف القصد عند المرسل والمتلقي، حيث "يصبح اللغز الذي يبرز مباشرة هو كيف أن يدرك المرسل إليه هذه المقاصد المتعكسة والمعقدة التي يعيها المرسل"⁽¹⁹⁾، ففي كثير من الأحيان، لا يقصد المتكلم ما أطلقه حرفيا وكثير من المقاصد لا يعلمها إلا صاحبها، فكيف للمتلقي أو لطرفي التواصل معا الكلام عن مقاصد مشتركة أو تعاون بين طرفي الخطاب؟

القصدية... قصور نظرية أفعال الكلام عن تحقيق فعل تواصل بريء.

لطالما أمانا بأن البراءة موضوع قانوني صرف، ثم أصبحنا نعتقد أنها موضوع إيديولوجي كذلك، متناسين في الوقت نفسه علاقته الوطيدة بالإتيقا والأخلاق. وما نحن نرى أن الفعل البريء حاضر في أكثر الآليات التي تتحكم في التبادل الاجتماعي، وبالحدّث عن المصطلح "البراءة" في إقليميته الاجتماعية -أخذا بعين الاعتبار اللغة كظاهرة اجتماعية- اللغوية فإنه لا مناص من أن نعود له بالمقابلة مع نظيره في التشاكل والتقابل "القصدية" و "يقوم مفهوم القصدية على أسس تداولية درسها فلاسفة التحليل ثم توسع في تفريغها وتعميقها التداوليون حتى غدت شبكة من المفاهيم التداولية"⁽²⁰⁾ حيث يرى جون سيرل أن القصدية بمفهومها الواسع تلك العلاقة التي تربط حالاته الذهنية بالعالم ويشمل ذلك الحالات الشعورية الاعتقادات والرغبات والمقاصد والإدراكات وكذلك ضروب الحب والمكاره والمخاوف والآمال، وبذلك يعد القصد أمرا نفسيا غير منطوق يحول المتلفظ إلى ملفوظات (les énoncés) ⁽²¹⁾.

كما يرى الدكتور إسماعيل مهنانة أن الموجودات لا يمكن تصورها إلا في أفق الأنا المفكرة، وهذه الإحالة المتبادلة بين الأنا والآخر هي بالضبط ما يسميه هوسرل القصدية، ويستدل على ذلك بقول هوسرل: "كلمة القصدية لا تدل على شيء آخر غير هذه الخاصية الأساسية والعامة التي يختص بها الشعور بأن يكون شعورا بشيء ما وأن يحمل في ذاته هو، بوصفه أنا أفكر، موضوعه المفكر فيه" ⁽²²⁾.

على أن جون سيرل يرى أن "توصف العبارة بالصدق بناء على ما إذا كانت الموجودات في هذا العالم هي بالفعل هي على النحو الذي تصوره به العبارات، فالحقيقة أو لنقل صدق أمر ما إنما هو باختصار مسألة ترتبط بدقة بتمثيل نوعه بعينه شكل من أشكال التعبير اللغوي هذا العالم"، وعلى اعتبار مقصدية اللغة وقصدية الخطاب، إذ أن

أصل كل خطاب هو القصد على حد "طه عبد الرحمن"، وعليه لا يكون القصد واضحا وجليا إلا ضمن تبادلية تفاعلية بين المتكلم والمتلقي ومن منظور "حسان الباهي" فإنَّ قصد المتكلم لا يخرج عن مقصدين اثنين: تواصلية تركيبية، وتكلمية متضمنة⁽²³⁾، فالأول لا يتجاوز الإبلاغية بالجملة بينما يتجاوزه الثاني إلى الإعلامية بموجب قواعد تواصلية، وهو ما يقابله على ما اعتقد، فعل القول والفعل التأثيري عند "أوستين".

ومتى سلمنا بذلك فإن سلطوية المتكلم في الخطاب باتت قائمة على اعتباره من يحدد مقصديته مسبقا، ما يجرتنا إلى إقصاء المخاطب الذي لا يملك أي دور في المعنى، لأنَّ تمظهرها كان من لدن المتكلم وما على المتلقي إلا أن يفك شيفرتها وأن يجتهد في تبيين الدلالة المقصدية في تداول فعل المتكلم القولية، وهو ما قد يخرج الفعل القولية إلى اللامباشرة والاستعارة وإلى التهكم، فقد يؤثر القصد بمعنى إرادة فعل الشيء في الحكم على الفعل نفسه، فتصبح الأفعال تابعة للمقاصد الباطنة لدى فاعلها لا تابعة لشكلها الظاهري فقط، وذلك مثل بعض الأفعال المتعلقة بعقد القران، أو إبرام عقود البيع.

وعلى هذا الاعتبار تعدّ التداولية المرجع عند "بيرس" في ثلوث الدال والمدلول والمرجع من وجهة نظر سيميائية التواصل، لذلك اهتدى "جون سيرل" إلى تطوير نظرية أسناده "أوستين"، بينما عمد "غرايس" إلى محاولة تفنين هذه وفق "مبدأ التعاون"، وفي غياب منهج صارم لأفعال الكلام في تعاملها مع المقصدية بين قطبي الخطاب، صار لزاما البحث في بديل يتفاعل فيه طرفا التواصل في حدود تداولية تُنظّمها أخلاقيات التواصل البناء وفق حاجات منظمة تحاول أن تحصر القصدية في براءة متواضع عليها.

إتيقا التواصل... نحو مشروع التواصل البناء

لقد حاول "هابرماس" الاستناد في محاولة تأصيله للمذهب التواصلية أو التداولية الشمولية التركيز على نقد العقل الأداتي، الذي اتصفت به فلسفة التنوير، وهو في هذا يذهب مذهب "مدرسة فرنكفورت النقدية وعلى رأسها "هوركهايمر" و"دورنو" وهربرت ماركيزوز" في تقديم للعقل الأداتي الذي ينظر حسب هابرماس "إلى الطبيعة والواقع من منظور التماثل ولا يهتم بالخصوصية... وينظر إلى الإنسان باعتباره جزءا يشبه الأجزاء الطبيعية المادية، فالإنسان بالنسبة للعقل الأداتي شيء ثابت وكمّي"⁽²⁴⁾، حيث يقصد هابرماس بنقده للعقل الأداتي تحطيم وهدم كل معطيات هذا العقل، واللغة حسب هابرماس هي واحدة من وسائل هذا الهدم، والحل الذي يقترحه هابرماس "هو العقل التواصلية الذي يقوم على تنشيط التواصل وقيمة الإنسان في المجتمع، فالعقل التواصلية هو المخرج من هيمنة العقل الأداتي"⁽²⁵⁾، فاللغة حسب هابرماس علم خاص وموضوع فلسفي عام و"تعد نظريته في اللغة المعروفة باسم الفعل التواصلية بمثابة منطلق جديد للعلوم الاجتماعية منطلق يستند إلى منجزات اللغة وفلسفة اللغة وبعبارة أدق إلى المنعطف اللغوي... ذلك أن هابرماس يرى أن اللغة تمكننا من إحداث قطيعة مع الأطروحات التقليدية"⁽²⁶⁾، تأسيسا على أن اللغة التواصلية عنده هي شكل من أشكال الانعتاق والحرية من العقل الأداتي النوراني، ومن هنا يمكن لأي حديث عن استخدام بريء في اللغة عند هابرماس أن يتمحور أساسا على مشروعه في التأسيس والتأسيس لمشروع إتيقا المناقشة، هذا المشروع الذي حاول من خلاله هابرماس أن يضع أسسا أخلاقية تحكم وتلف الفعل التواصلية عنده، حيث إن هذا المشروع يهدف إلى خلق ذوات لا تقوقعية ترى نفسها في الآخر أكثر مما تتمركز حول نفسها. هذه المركزية التي سيطرت على الفكر الأوربي والغربي عموما منبئية على الكوجيتو الديكارتية: أنا أفكر أنا موجود، إذن هابرماس يحاول الخروج من الأنا المكتفية بذاتها إلى أنا لا ترى ذاتها إلا في الآخر في تمرين مناقشاتي تتساوى فيه الذوات ف "على كل، إن المشاركين في مناقشة ما لا يمكنهم أن يحلموا بإدراك توافق حول ما يمكن أن نسميه القاسم المشترك المتساوي بين الجميع إلا إذا قام كل واحد منهم بالخضوع ذاتيا إلى ذلك التمرين الذي يمكننا من خلاله تبنى وجهة نظر الآخر... ومن ثم التخلي عن تلك النظرية المركزية في تعامل الفهم مع العالم القائم"⁽²⁷⁾، فالذوات حسب لا ترى نفسها

مكتملة إلا في مرآة الآخر فـ" هم أشخاص لا يستطيعون بلوغ مرحلة الفردنة إلا داخل مسار التشارك الاجتماعي"⁽²⁸⁾، غير انه تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا التلاحح الاجتماعي بين الذات لا يعني تغييب حريتها، لان كل شخص يحافظ على حريته في تعامله مع الآخرين، ذلك أن "شخصا معيناً لا يمكن أن يتمتع بحريته الفردية إلا إذا كان كل أفراد الجماعة يتمتعون بها بدرجة متساوية"⁽²⁹⁾، وبهذا نجد أن هابرماس يحاول دحض مقولة كانط في الاستقلالية لأنه لا يمكن المحافظة عليها في واقع المجتمع، وهنا يقدم هابرماس شرطين لتمظهر إتيقا المناقشة في مجال التداولية "فالمناقشة تلبى الشرطين حصراً: فكل مشارك فرد حر فيما يقوم به مادام يحوز على السلطة الاستيمية في صيغة المتكلم، هذه السلطة الاستيمية تتم ممارستها بغرض البحث عن اتفاق عقلاني مدروس"⁽³⁰⁾. فالشرطان يتعلقان بالحرية التواصلية وثبوتها لعلاقة ذواتية متميزة يحكمها التوصل البناء، وهو ما يهدف إليه هابرماس في مشروع إتيقا التواصل، ذلك أن الانخراط في جماعة تواصلية يعني نكرانا للذات ومصالحة مع الآخر الذي هو جزء من الأنا، أو تأسيساً لفلسفة بينذاتية تكفل للآخر أن يرى نفسه في الأنا لأنه جزء منها، لـ "أن التواصل حسب هابرماس موجود في الاجتماعي وفي اللغة التي تكتسي طابعاً معيارياً، والتي تجد صياغتها في فضاء عمومي بما هو فضاء رمزي"⁽³¹⁾.

في حين تجدر الإشارة إلى تأكيد هابرماس على شرط احترام أساسيات المناقشة حتى يتأدى فعل التواصل في وفاق بين الذات، حيث يصنف هابرماس فعل الكلام كالتالي: "مكون جملي مهمته تصور أو ذكر أحوال الشيء، ومكون فعل المنطوق مهمته عقد علاقات بين الأشخاص، وأخيراً مكون لساني مهمته أن يعبر عن قصد المتكلم"⁽³²⁾، وبهذا التقسيم نجد أن هابرماس يؤسس لذوات قابلة للخطأ معترفة به، ما يخرج الذات من مثالية كانط وأدائية العقل التنويري واللذين اعتبرتا الذات أس كل المعارف ومرجع الحقيقة الكامنة وراء براءة الذات المنحلة في الآخر.

وتشير عطيات أبو السعود في مقالها الموسوم بـ"نظرية الفعل التواصلية عند هابرماس" إلى مجموع الشروط التي يجب أن تتوفر في المناقشة التواصلية لان التواصل عند هابرماس هو حوار ومناقشة ومن نشاط التواصلية: "إن النشاط التواصلية يتم من خلال علاقة تفاعل بين فردين أو أكثر فمن حق كل شخص له القدرة على الكلام أن يشارك في النشاط التواصلية، وتتم عملية التواصل من خلال اللغة فاللغة هي الوسيط الأساسي في النشاط التواصلية، وهدف التجربة التواصلية هو الوصول إلى اتفاق بين الذات المشاركة في التفاعل، لا بد للنشاط التواصلية من ديمقراطية الحوار، ويجب وجود ظروف تضمن الإجماع والذي لن يتم الوصول إليه إلا عن طريق قوة الأطروحة الأفضل، ولذلك لا بد من قوة الحجة والبراهين التي يقوم عليها التواصل، ويجب أن يتحرر التواصل من كل سيطرة وهيمنة طرف على الآخر ومن القهر الخارجي، ويجب أن يتاح لكل مشارك في التواصل الفرصة في الدفاع عن رأيه دون سيطرة سلطة ما"⁽³³⁾.

فإذا تتبعنا شروط هابرماس في تحقيق التواصل نجد أن الشروط الأخيرة وبالتحديد الشرطين الأخيرين يتحدثان عن شرط المحاججة لإقناع الآخر. غير أن هذه المحاججة التي تلعب دوراً هاماً في فلسفة هابرماس حتى لا تخرج اللغة فارغة لا علمية فيها، يجب أن تتعدى شروط اللباقة التواصلية حتى لا يعود الحوار والتواصل إلى إشكالية السلطة والقهر. وذلك بغية تحقيق "ممارسة وفاقية إجرائية وفق إتيقا المناقشة الحجاجية، والتي يمكن لمخزونها من النقد الذاتي أن يضع النتائج المحصلة موضع مراجعة، دونما تأثير من أي إجراء تفرضه سلطة متعلقة بأمر تم تقريره من قبل"⁽³⁴⁾، على أن تتم هذه الإتيقا الحجاجية وفق مبدأ تداولي (القضية، صحة الفعل، وصدق القول)، فالحجاج بوصفه ممارسة تداولية تتباحث الحقيقة وتتفحص الخطابات من ناحية مناسبتها وملاءمتها بغية إسقاطها على التوافق في الفهم البينذاتي بلوغ التفاعل الجماعي والشراكة المجتمعية.

ويكشف هابرماس عن آلية تفعيل الحجاج كفعل لغوي- تداولي منتج إذ يعتمد على مبادئ منها:

1. "الكونية والعالمية، إذ أن جميع المشاركين في التداول والحوار وفق ما هو متفق عليه قبلياً...

وعليه يكون الحب (l' amour) والحق (le droit) و(التضامن la solidarité)، واللغة هنا هي المنعرج الأساس ما بعد هابرماس ليس في اللغة في حد ذاتها، بل في ما تؤسسه اللغة في الفضاء العام من اعتراف وتسامح ومحبة، بفرض نموذج خالي من أشكال العنف الرمزي. إن أكسيل هونيت يحاول استحداث قاموس الحب أو المحبة والتضامن وفق تأسيس قاعدة متينة وبمنهج لغوي صارم أنها "قاعدة المواطنة". هذه القاعدة تشتغل وفق هيكلية استعمال اللغة وتداولها بين المجتمع اللغوي وفق ثنائية مواطن/ مواطن أنها تداولية الحب. وقد برر أكسل هونيت موقفه من هذا المشروع كون أن الاعتراف يرتبط كل الارتباط بما يسمى بالتعدد الثقافي والاعتراف بسياسة الاختلاف وبالهجين الثقافي وهو ما يشير إليه هومي بهابها في موقع الثقافة، غير أنه لم يركز على المشكلات الثقافية بقدر ما ركز على تشيؤ الأفراد والحرمان، محاولاً تنشئة أو "تبيئة" الذات الإنسانية كما يقول الأستاذ اليامين بن تومي، ولقد ركز أكسل هونيت في مشروعه على "براديغم الاعتراف" فالاعتراف بالأخر يؤسس للمحبة، ولو أن هذا الاعتراف يخفي مرجعية مسيحية، ونبذ الكراهية وكل ما هو استعداد على الأخر، وبذلك تزول ثنائية الأنا والأخر وهو ما يعلن عن ميلاد مجتمع النحل.

هنا نتجاوز الكوجيتو الديكارتية الذي يبني لأنه كوجيتو مجروح يبني على ثنائية الأنا/الأنا واستبداله بكوجيتو حر كوجيتو أنا/ موضوع، وهذا ما يذهب إليه الدكتور اليامين بن تومي في مقاله الموسوم مفهوم النقد والتواصل عند هابرماس "إنه تجاوز للمضمون التقليدي لبنية الكلام، نوع من التدوين الجديد نحو خلق تفاعل جديد للإنسان المشارك لغيره، هنا تندثر الرغبة الذاتية لصالح الجماعة المتخاطبة المتحاور لتعبر عن الكوجيتو الجديد "الفضاء العام (l'espace public) من خلال "التواصل مع" أو جعل الفرد يحيا مجتمع التواصل الذي يعكس علاقات الجوار المتبادل⁽⁴²⁾.

إذن فداخل هذا الفضاء العام الذي قوامه "التواصل مع" والمنبني على أساس التفاعل ووفق إتقنية حوارية متبادلة ستزول لا محالة كل مرجعية وخلفية متعالية وترنداستالية وتهدم العصبية المنحطة، ومعها تندثر كل سلطة فوكوية. وتحل محلها تداولية هونيتية - أكسل هونيت - يلبس فيها الأنا الموضوع وتلاحم الإنية بالغيرية.

وتنطلق فكرة المشروع الهونيتي من جوانب وأنماط اجتماعية:

- الثقة بالنفس والعلاقات العاطفية: (LA CONFIANCE EN SOI) خاصة الحب الذي يمثل عنده علاقة تفاعلية مؤسسة على نموذج من الاعتراف المتبادل، وقياسا على ذلك يعتبر هونيت أن الاغتصاب والتعذيب مثلا يحرم تلك العلاقة الإيجابية مع ذاته على المستويين النفسي والأخلاقي.
- احترام الذاتية والأخلاقية: (LE RESPECT DE SOI) تشمل مسألة احترام الذات عند هونيت على التبادلية التفاعلية بين الأفراد للحقوق المدنية والسياسية والأخلاقية المشروعة سيما عندما يعايشون ويتعايشون تجربة الاعتراف فيما بينهم.
- تقدير الذات (ESTIME DE SOI): يؤسس هذا النوع لمستوى تداوتي ناتج أساسا عن الاعتراف المتبادل للعلاقات الإيجابية البينية، فالاعتراف القانوني وحده أصبح قاصرا أمام الاعتراف الاجتماعي بنسق قيمي وأطر إتقنية".

من هذه المنطلقات أسس أكسل هونيت لمشروعه - الجديد المستحدث - وفق براديغم الاعتراف وإتقنا تقدير الآخر وهي انتقال تاريخي من إتقنا المناقشة إلى براديغم الاعتراف، ومن تواصل ضيق لغوي إلى تباغية تداولية بريئة

أخلاقيا، وعليه حاولت هذه الدراسة أن تتناول كرونولوجيا، لتتباحث الحقيقة الكامنة وراء المحاججة التداوليّة، بالوقوف على نقد المفاهيم السفسطائية للغة، مرتكزة أساسا على المنعطف اللغوي.

الهوامش والإحالات:

- ¹ - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء المغرب، بيروت - لبنان، ط2، د.ت، ص 244.
- ² - محمد مجدي الجزيري، المتشابهات الفلسفية لفلسفة الفعل عند فتجنشتاين، دار أتون للتوزيع، القاهرة . مصر، د ط، 1986، ص 75.
- ³ - ينظر: مجموعة مؤلفين، فلسفة اللغة "قراءة في المنعطفات والحديثيات الكبرى"، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر - الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت . لبنان، ط01، 2013، ص 23.
- ⁴ - ينظر: جورج يول، التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت . لبنان، ط01، 2010، ص 19.
- ⁵ - الزواوي بغورة، الفلسفة و اللغة "نقد المنعطف اللغوي"، في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للنشر و التوزيع، بيروت ت لبنان، ط 01، 2005، ص 202.
- ⁶ - المرجع السابق، ص 104.
- ⁷ - فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط . المملكة المغربية، دط، دت، ص 60.
- ⁸ - الزواوي بغورة، الفلسفة و اللغة "نقد المنعطف اللغوي"، في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للنشر و التوزيع، بيروت ت لبنان، ط 01، 2005، ص 105.
- ⁹ - آن روبرول، جاك موشلار، التداولية اليوم "علم جديد في التواصل"، تر: محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت . لبنان، ط 01، 2003، ص 33.
- ¹⁰ - المرجع السابق، ص 34.
- ¹¹ - الزواوي بغورة، الفلسفة و اللغة "نقد المنعطف اللغوي"، في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للنشر و التوزيع، بيروت ت لبنان، ط 01، 2005، ص 108.
- ¹² - جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع "الفلسفة في العالم الواقعي"، تر: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر . الجزائر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، دار العربية للعلوم، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى، 2006، ص 201، ص 202.
- ¹³ - المرجع السابق، ص 206، ص 207، ص 208.
- ¹⁴ - مجموعة مؤلفين، فلسفة اللغة "قراءة في المنعطفات و الحديثيات الكبرى"، ابن النديم للنشر و التوزيع، الجزائر . الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى، 2013، ص 34.
- ¹⁵ - آن روبرول، جاك موشلار، التداولية اليوم "علم جديد في التواصل"، تر: محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت . لبنان، ط 01، 2003، ص 34.
- ¹⁶ - مجموعة مؤلفين، فلسفة اللغة "قراءة في المنعطفات و الحديثيات الكبرى"، ابن النديم للنشر و التوزيع، الجزائر . الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت . لبنان، ط01، 2013، ص 34.
- ¹⁷ - جاك موشلار، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة، إشراف عز الدين المجذوب، دار سناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس . تونس، الطبعة الثانية، 2010، ص 214.
- ¹⁸ - المرجع السابق، ص 214.
- ¹⁹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب "مقاربة لغوية تداولية"، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت . لبنان، ط01، 2004، ص 219.

- ²⁰ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة أفعال الكلام في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للنشر و التوزيع، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى، 2005، ص 85.
- ²¹ - مجموعة مؤلفين، فلسفة التأويل "المخاض و التأسيس و التحولات"، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر . الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت . لبنان، ط01، 2013، ص 106.
- ²² - جون سيرل، العقل و اللغة و المجتمع "الفلسفة في العالم الواقعي"، تر: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر . الجزائر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء . المغرب، دار العربية للعلوم، بيروت . لبنان، ط01، 2006، ص 242.
- ²³ - مجموعة مؤلفين، فلسفة اللغة "قراءة في المنعطفات والحديثيات الكبرى"، ابن النديم للنشر و التوزيع، الجزائر . الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت . لبنان، ط01، 2013، ص 23.
- ²⁴ - أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورجين هابرماس "الأخلاق و التواصل"، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت . لبنان، د ط، 2012، ص 134.
- ²⁵ - المرجع السابق، ص 135.
- ²⁶ - الزواوي بغورة، الفلسفة و اللغة "تقد المنعطف اللغوي"، في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة للنشر و التوزيع، بيروت . لبنان، ط01، 2005، ص 209.
- ²⁷ - يورغن هابرماس، إتيقا المناقشة و مسألة الحقيقة، تر: عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف، الجزائر . الجزائر، ط01، 2010، ص 23.
- ²⁸ - المرجع السابق، ص 23.
- ²⁹ - المرجع نفسه، ص 25.
- ³⁰ - المرجع نفسه، ص 26.
- ³¹ - مجموعة مؤلفين، فلسفة اللغة، ص 312.
- ³² - يورغن هابرماس، المعرفة و المصلحة، تر: حسن صقر، منشورات الجمل، كولونيا . ألمانيا، ط01، 2001، ص 358.
- ³³ - عطيات أبو السعود، نظرية الفعل التواصلية عند هابرماس، ص 322 ، ص 232. ينظر : أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورجين هابرماس "الأخلاق والتواصل"، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت . لبنان، د ط، 2012، ص 149.
- ³⁴ - مجموعة مؤلفين، فلسفة اللغة "قراءة في المنعطفات و الحديثيات الكبرى"، ص 336.
- ³⁵ - ينظر : المرجع السابق، 341.
- ³⁶ - كارل أوتو آبل، التفكير مع هابرماس ضد هابرماس، تر و تقد: عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف، الجزائر . الجزائر، ط01، 2005، ص 19.
- ³⁷ - المرجع السابق، ص 19.
- ³⁸ - كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، منشورات الاختلاف، الجزائر . الجزائر، ط01، 2010، ص 13، ص 14.
- ³⁹ - حوار مع الفيلسوف الأمريكي اكسل هونيث، ترجمة نور الدين علوش <http://www.ta5atub.com/t9104-topic>
- ⁴⁰ - ينظر : المرجع السابق، ص 360.
- ⁴¹ - مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو - الجزائر، العدد 17، ص 199.
- ⁴² - ينظر : كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، ص 126، ص 127.